المحاضرة: رقم 01

فتح الأندلس

أوضاع الأندلس قبيل الفتح الإسلامي

كانت الجزيرة قبل الفتح تعيش في حياة مضطربة قائمة على الطبقية، حيث نجد الطبقة العليا المكونة من الملك والنبلاء: يتم فيها تعيين الملك بالانتخاب لا بالوراثة، فالنظام كان ملكيا انتخابيا، لكنه أدى في النهاية إلى التنافس بين هؤلاء النبلاء للوصول إلى الحكم، فكثرت المؤامرات بينهم الأمر الذي أدى إلى إضعاف الدولة، وكانت لهذه الطبقة إقطاعات كبيرة ولا يدفعون عليها الضرائب.

بعدها تأتي طبقة رجال الدين حيث كانت مهيمنة على المجتمع وذات امتيازات اجتماعية وسياسية حيث تتدخل في تعيين الحكام، ولها ممتلكات معفاة من الضرائب مثل الطبقة الأولى.

ثم الطبقة الوسطى وهي تتكون من التجار والحرفيين فهي ميزان (ترمومتر) المجتمع، فكثرتها تدل على رخاء المجتمع وقلتها تدل على اختلاله وكانت في ذلك العهد قليلة مثقلة بالضرائب. تأتي بعدها الطبقة الدنيا والمتكونة من العبيد والعامة وهي جد واسعة.

ثم يأتي اليهود الذين هم عنصرا وليس طبقة فكانوا يقومون بالأعمال المالية ويشتغلون بالربا والتجارة، كما كانوا مكروهين من طرف المجتمع الاسباني.

ففي الثلاثين سنة الأخيرة قبل الفتح كان على رأس القوط ملك يدعى "أخيلا" الذي أشرك ابنه "غيطشة" في الحكم دون استشارة الأسرة الحاكمة ومن هنا يبدأ الصراع، حيث أن "غيطشة" تربع على الحكم بدون قرار مجلس النبلاء، وعين ابنه "وقلة" كولي لعهده الذي دخل في عهده المسلمون.

ولما توفي "غيطشة" سنة 708م كان "وقلة" في الشمال حيث دبر له انقلاب عسكري وعينوا مكانه شخصية اسمها "لوذريق" وهو من طبقة النبلاء. في الوقت نفسه استقر الفتح في المغرب وكان اليهود يسعون لتحريض دخول المسلمين إلى اسبانيا لما تعرضوا له من اضطهاد. وكانت سبتة يحكمها "يوليان" حيث تعاهد مع المسلمين على عدم الاعتداء.

سبب فتح الأندلس:

هناك روايتين إسلامية واسبانية حول السبب المباشر.

-الرواية الأولى الإسلامية كانت أبعد من الثانية حيث تقول أن يوليان كانت له علاقة طيبة مع القصر الملكي في طليطلة حيث كان يرسل أبناءه ليتعلموا التقاليد الملكية وآداب الطبقة الراقية، فحدث أن أُغتصبت ابنته فتحالف مع المسلمين ودلهم على الفتح للأخذ بالثار.

أما الرواية الأجنبية تقول أن وقلة لما طرد من ملكه من طرف لوذريق طلب المساعدة من حليفه يوليان حاكم سبتة الذي قربه إلى طارق الذي أعطاه الجيش ليعيد له ملكه مقابل جزية سنوية يدفعها للمسلمين. وقد تكون الرواية الثانية أقرب للحقيقة لأنها تتفق مع طبيعة الأحداث في ذلك الوقت وبحكم أن مدينة سبتة كانت ملجأ ومقرا للمعارضين لحكم القوط.

لكن ابن الكردبوس يقول: انه لما جاء يوليان إلى طارق بن زياد قال له: أنه لا يستطيع أن يبرم معه أي اتفاق لأن فوقه أمير وفوق أميره أمير. فاخذ طارق يوليان ووقلة إلى موسى بن نصير فقام هذا الأخير باستشارة الخليفة الوليد بن عبد الملك في الأمر فأشار له الوليد أن يختبر المنطقة وقوة العدو ولا يغامر بالمسلمين ولما رجع موسى إلى يوليان قال له: "إننا لا نشك في قولك ولا نرتاب، غير أننا نخاف على المسلمين من بلاد لا يعرفونها، وبيننا وبينها البحر، وبينك وبين ملكك لوذريق حمية الجاهلية واتفاق الدين، فجز إليه بنفسك وشن الغارة على بلاده، واقطع ما بينك وبينه، وإذ ذاك تطيب النفس عليك، ونحن من ورائك إنشاء الله"، وبالفعل ذهب يوليان إلى الجزيرة الخضراء وحارب جماعة من القوط.

ولم يكتف موسى بهذه الغارة الاستطلاعية التي قام بها يوليان بل قام بتجهيز فرقة من أربعمائة (400) من المشاة ومائة (100) فارس، وعين على رأسها رجل من البربر يُدعى طريف بن مالك وأمره أن يشن حملة على الساحل الجنوبي لإسبانيا، فعبر طريف المضيق وذلك سنة 91هـ، ونزل في مكان يُسّمى الآن طريفة، وقام بغارة على المناطق المجاورة له، واستولى على كثير من الغنائم ثم رجع سالما إلى المغرب.

حملة طارق بن زياد

اقتنع موسى بن نصير أخيرا بأنّ هذه البلاد ستكون سهلة المنال للمسلمين بعدما عرف ضعف المقاومة الإسبانية، فبدأ يجهز جيشا كبيرا يقدر بحوالي سبعة (7000) ألاف جندي ومعظمهم من البربر، وأوكل قيادته لطارق بن زياد نائبه على طنجة.

وهنا يطرح السؤال، فمن الروايات من يقول أن موسى يريد التخلص من البربر ووضعهم في مستنقع لكن الرواية الأصح أن المغاربة هم أكثر تأقلما مع تلك المنطقة بحكم الجوار بين المغرب واسبانيا.

حيث يقول ابن الكردبوس: "وجيء طارق بسفنه من سبتة إلى الجبل حيث وجد عدة مقاومات في المناطق الحساسة حيث حصنت بجيوش كبيرة فعدل عنه إلى موضع أوعر في الليل رغم شدة المسالك ويعمل عملية التفاف حول الجيش الرومي ثم أغار على تلك الحامية وسيطر على تلك المنطقة وأصبح الجبل يعرف باسمه.

أما قضية السفن فان العديد من المصادر الإسلامية تقول: أن طارقا كان مزودا بالعديد من السفن وهي تحت قيادة يوليان وهذا لا يعقل أن تكون السفن لتجار الروم أو للكونت يوليان وهذا الكلام بعيد عن الواقع التاريخي لأنه يتعارض مع سياسة الأمويين وخصوصا الوليد ين عبد الملك التي تقوم على عدم المغامرة بأرواح المسلمين في البحر أو البر. والرأي الذي يبدو صائبا في نظر الدارسين أن موسى في هذا الفتح اعتمد على أساطيله التي كانت تحت قيادته لان المسلمين كانت لهم دارا لصناعة السفن في تونس، كما استولى المسلمون على السفن البيزنطية الموجودة في السواحل الشمالية للمغرب أثناء عملية الفتح. ومن وجهة أخرى أنه من غير المعقول أن تعطى قيادة السفن لشخص أجنبي مهما خلصت نيته في مهمة حربية كهذه.

كما توجد قضية الخُطبة التي شكك فيها بعض المؤرخين والتي تبدأ: "أيها الناس أين المفر؟ البحر من وراءكم والعدو أمامكم..." إذ قالوا كيف لطارق أن يخطب بهذه البلاغة أمام ما يقارب من سبعة ألاف (7000) بربري. ولكن وُجد من قال أن طارقا خطب باللسان البربري وعربت فيما بعد من طرف بعض المؤرخين.

عسكر طارق في الجبل عدة أيام وأنشأ خلالها حصنا وقاعدة له كما بنى سورا أحاط جيوشه سماه سور العرب، ثم اتجه شمالا واستولى على بلدات أهمها قرطاجنة ثم زحف غربا واستولى على الجزيرة الخضراء، وجعل منها قاعدة حربية لحماية ظهره عند الانسحاب وأمر طارق يوليان ومن معه بأن يقوموا بحراسة هذه القاعدة والدفاع عنها في حالة قيام القوط بأي هجوم، ثم واصل طارق زحفه نحو الجنوب الغربي حيث عسكر عند سهل مدينة شذونة وأثناء ذلك كان الملك القوطي لذريق مشغولا

بإخماد ثورة في شمال إسبانيا، فلما علم بالأمر أسرع بالعودة جنوبا إلى عاصمته طليطلة، فخرج منها على رأس جيش ضخم يقدر بمائة ألف وقيل سبعون ألفا لملاقاة المسلمين، وعندما علم طارق بأنباء تلك الحشود أرسل إلى موسى يطلب المدد، فأرسل إليه خمسة آلاف مقاتل فبلغ جيش طارق أثنى عشر ألفا.

زحفت جيوش لذريق جنوبا وعسكرت عند مدينة شذونة حيث التقى هناك بجيش المسلمين، لمدة ثمانية أيّام (من 28 رمضان إلى 5شوال سنة 92هـ/711م)، في موقعة وادي لكة التي انتهت بانتصار ساحق للمسلمين.

بعد ذلك زحف طارق إلى مدينة شذونة واستولى عليها ثم بدأ الزحف شمالا نحو طليطلة عاصمة القوط، وأثناء زحفه استولى على مدينة أستجة وهناك قسّم جيشه بناءً على نصيحة من الكونت يوليان، فبعث فرقة إلى غرناطة والبيرة ونواحيها واستولت عليها، وفرقة أخرى بقيادة مغيث الرومي إلى قرطبة استولت عليها بعد حصار استمر ثلاثة أشهر. ثم توجه بباقي الجيش إلى طليطلة حيث دخلها بدون قتال.

عبور موسى بن نصير

وبعد أن تمَّ له فتح طليطلة، أرسل طارق إلى موسى يُعلمه بالفتح. فأرسل موسى إلى الوليد بن عبد الملك يبشره، وإلى طارق يأمره بأن يتوقف عن الفتح ويبقى بطليطلة حتى يلحق به. ثم استخلف موسى ابنه عبد الله على القيروان. وفي رمضان سنة 93هـ /712م عبر موسى مضيق جبل طارق بجيش كبير بلغ ثمانية عشر (18000) مقاتل جلهم من العرب، ثم زحف غربا وسار في طريق مغاير للذي سلكه طارق، ويبقى السؤال لماذا اتجه موسى بن النصير نحو الطريق الغربي ولم يتجه نحو المناطق الشرقية المفتوحة؟ ويرجع هذا لأن موسى أراد أن يحمي ظهر طارق من الجهة الغربية، وقد تمكن من فتح مدن أخرى لم يفتحها طارق مثل قرمونة واشبيلية وماردة، ثم بدأ يزحف شمالا لمقابلة طارق قرب طليطلة عاصمة القوط، وهنا علم أنّ نصارى اشبيلية ق ثاروا ضد المسلمين وفتكوا بهم واستولوا على المدينة فأرسل موسى ابنه عبد العزيز الذي تمكن من استرداد اشبيلية وإخماد ثورة أهلها، وبعدها كان لقاء الفاتحين في طليطلة. ومنها راحا ينسقان الفتوح الباقية ببلاد الأندلس فيما بينهما.

زحف موسى ومعه طارق نحو الشمال الشرقي وفتحوا سرقسطة ووشقة ولاردة سنة 94هـ، بعدها تم تقسيم جيشهما إلى قسمين: أحدهما بقيادة طارق واتجه إلى الشمال والشمال الشرقي من إسبانيا حيث بلاد البشكنس والأراغون، حتى بلغ جبال "ألبرت" أي الأبواب، التي تفصل بين اسبانيا وفرنسا.

وبينما كان طارق بن زياد يقف على أبواب "فرنسا"، كان الجيش الثاني الذي يقوده موسى يتجه غربًا نحو إقليم أشتوريس الذي يطل على خليج بسكاية، واستولى على الطرق المؤدية إلى مدينة خيخون الساحلية، ولم يواجه المسلمون في تلك الحملات سوى مقاومة بسيطة. إلا أن المسلمين في الواقع لم يفرضوا سلطانهم على تلك النواحي من الركن الشمالي الغربي لوعورة مسالكها وبرودة مناخها فزهدوا فيها واستهانوا بشأنها جعلهم ينسحبون منها، ولهذا استطاعت بعض فلول الجيش القوطي المنهزم بزعامة قائد منهم يدعى بُلاي أن يهربوا إلى قمم تلك الجبال الوعرة التي تدعى اليوم "قمم أوربا"ويعتصموا بها. وفي هذه المنطقة ولدت بعد ذلك أول مقاومة مسيحية منظمة وتكونت فيها نواة أول إمارة تواجه الدولة الإسلامية الوليدة.

نهاية الفتح

وفي سنة 95هـ كان موسى في لاردة فجاءه رسولا من قبل الخليفة الوليد بن عبد الملك يستدعيه هو ومولاه طارقا إلى حضرة الخليفة بدمشق لكي يعرضا عليه نتائج حملاتهما، فامتثلا لأمره، فرجع موسى إلى اشبيلية حيث جعلها عاصمة، وترك فيها حامية إسلامية على رأسها ابنه عبد العزيز ثم عاد مع طارق إلى المشرق في سنة 96هـ.

ويرجع سبب استدعائه هو أن الخليفة الوليد كان يعرف نوايا موسى بن نصير وهي فتح القسطنطينية عبر أوربا فأوقفه لما قد يَعود به من عواقب على جيوش المسلمين في تلك البلاد البعيدة، وقد تعددت الروايات بذلك ومات موسى بن نصير وهو حاجا مع سليمان بن عبد الملك الذي كان خليفة، أما طارق فلم يُذكر عنه شيئا.

وهكذا أصبح عبد العزيز بن موسى واليا على الأندلس، أما على رأس المغرب فقد ولى موسى ولديه الآخرين عبد الله على القيروان وعبد الملك على طنجة والسوس.

وكان على عبد العزيز بن موسى أن يستكمل الفتح فغزى المنطقة الغربية ولم يتبقى من الأندلس سوى بعض المناطق الشرقية والشمالية الغربية، ففي شرق الأندلس تركزت المقاومة في كورة تدمير (مرسية حاليا) وكانت لها قاعدة حصينة وهي أريولة، حيث أن حاكمها الأمير القوطي تيودمير لم يستسلم للمسلمين حتى فاوضه عبد العزيز ومنحه شروطا ضمنت له أن يحكم ولايته مقابل جزية سنوية.

إلا أن عبد العزيز لم يدم حكمه طويلا على ولاية الأندلس حيث ثار عليه ضباطه وقتلوه وكان ذلك سنة 97هـ، وحسب الرواية أن امرأة لوذريق كانت ذات قيمة عند عبد العزيز حتى تزوج بها وبدأت تلقنه أخلاق زوجها حتى ألبسته التاج، كما طلبت منه أن يبني لها كنيسة وفعل ذلك وكانت هذه التغييرات في سلوكات الأمير لم تعجب المسلمين خاصة الضباط فتأمروا عليه وقتلوه وتولى مكانه ابن خالته أيوب بن حبيب اللخمي لكن رواية أخرى تقول أن عبد العزيز لما سمع اضطهاد أبيه موسى بن نصير في المشرق قام بشتم الخليفة فقتله الضباط. وربما هذه الأرجح لان الخلافة كانت تنظر على أنه منافس قوي لها، وقد يستقل بحكمه عنها فقامت بتدبير أمر مقتله، أما الرواية الأولى التي تتهمه بالتنصر فتبدو ملفقة لتبرير مقتله فمن غير المعقول أن يميل قائد مسلم إلى النصرانية بعد هذا الجهاد وهذه العزة التي حققها في الأندلس.